النزوع الديني الإسلامي عند روائيّ أمريكا اللاتينية

"باولو كولهو" نموذجا

ط.دردیري هجيرة / أ.د. بن حلي عبد اللـه

جامعة وهران –السانية

" ثقافات عديدة أثّرت فيّ ولكن الثقافة العربية هي
ومكتوب وزهير وكلها الأقوى تأثيرا علي فقد كتبت السيميائي
" روايات تأثرت فيها بالثقافة العربية

"باولو كولهو"

عندما نتأمل المشهد الروائي في أمريكا اللاتينية، ينضح لنا أن أسماء كثيرة تركت بصماتها على الإبداع الروائي المحلي والعالمي أيضا بفضل تميّزها وتفردها، فلا أحد يشك في أنّ "خورخي لويس" Joerg luis Borges " وقارسيا ماركيز" Garcia markezو"باولو كولهو" Paolo coelho وقبل هؤلاء "جورج آمادو" George amado قد شقوا لأنفسهم طريقة خاصة في الكتابة الروائية، أخذت أبعادها من التجربة الذاتية ، تجربة واقعية برت أقلام هؤلاء وأذكت قريحتهم.

إن الحداثة وعلاقتها بالنص الروائي اللاتيني لا يكاد ينفصل عن الثقافة العربية الإسلامية– وان كان جلّهم ينكر ذلك– باعتبارها رافدا أساسيا ساهم بشكل كبير في زعزعة مفاهيمه وبث الحيرة والقلق في تمفصلاته. فمع الحركة الجديدة التي شهدها العالم في مطلع القرن الواحد والعشرين على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتكنولوجي، كان لزاما على الحركة الإبداعية اللاتينية ألاّ تحيد عن هذا التيار– ويبدو أنها درست الوضع جيّدا– فشقّت لنفسها أسلوبا جديدا في الكتابة يتغذى بالدرجة الأولى على التراث الإنساني لما له من خصوصية وحميمية لا يمكن أن تكون إلا فيه؛ فقد تشاكل فيه المعلوم بالمجهول، والسريّ بالغامض، والخفي بالظاهر، حتى ظهر في أسمى تجلياته ابتداء من " مائة عام من العزلة " و" الحبّ في زمن الكوليرا" وصولا إلى "خيميائي" باولو كولهو وكلّها أعمال نالت حظّها من الدّراسة والتمحيص نظرا لقيمتها الفنيّة الكبيرة.

إن ما يمكن الإشارة إليه هو أن الرواية في أمريكا اللاتينية هي رواية واقعية استمدت قوتها من هاجس الجوع والخوف والجهل والبطش الذي مورس على شعوبها ، واقعية سعت إلى تمثيل الواقع بعيدا عن المحاكاة الفعلية التي تلغي تماما وجود المبدع وتنادي بموت الخَلق الخلاّق؛ إنّها تحاول قدر ما أمكنتها الظروف وتهيأت لها الأسباب الغوص في باطن الإنسان ثائرة على كلّ أشكال القيود التي فرضتها المدارس التقليدية الأوروبية القديمة.

إن الجدلية القائمة بين التراث والواقع جدلية تحتّم علينا النظر في هذا التراث نظرة فاحصة م ـعبرة راشدة تستبطن منه جوانبه النيّرة من أجل إعادة إحيائه وبعث الحياة فيه من خلال توظيفه في الرواية أحسن توظيف. إنه ا الطاقة المبدعة المتجددة التي لا ينضب معينها مهما تعاقب الزمن وتوالت الأحقاب بل على العكس فقد تعتقه وتزيد من بهائه وإشعاعه.

ولما كان التراث صالحا للاستثمار في أيّ فنّ، فقد كان العمل الأدبي وتحديدا الرواية أرضا خصبة له، إذ ميّزها بأن منحها خصوصية تستحيل أن تتهيأ لها دونه. وأَجْمِل به أن حمل بين ثناياه صنوفا عدة من ألوان السرد كالحكاية والخرافة والسيّر والرحلة وأشكال لا تخفى من الصور والأخيلة وفضاءات مكانية تنقلت بين البحار والصحاري، وبين السماء والأرض، وبين الجنّة والنار، فمن مزاياه أنّه تنوّع حتى تشبّع، وللمبدع أن يأخذ منه ما شاء، رمزا أو إيحاء ليخلق منه لوحة فنية جديدة، فيها من قسماته الشيء الكثير، لكنّها لا تشبهه إلا بكونها قد تطعّمت من عمق أصالته وجلاله.

وقد كاد الغرب أن يأخذه كلّه، ولا يترك لأهله شيئا، كيف لا وقد كانت "ألف ليلة وليلة" الكتاب الوحيد الذي ظلّ ولا يزال أدباء ومفكرو وفلاسفة أوروبا يتطلعون إليه كأوّل عهدهم بالكتاب في بداية القرن الثامن عشر حيث استلهموا منه صورا جديدة وأخيلة غير مألوفة، فرسموا على منواله لوحات تشكيلية، وقصصا خيالية وإيقاعات موسيقية مستوحاة كلّها من السفر العجيب، التي اكتشفوا من خلاله عالم الشرق الذي ظلّ يسحرهم بظلاله وبخوره وعطوره وجنوحه إلى اليوم، فضلا عن كتب أخرى مما جادت به خزينة التراث، نحو "معراج المعريّ"، و" شطحات الحلاج" و" أشعار جلال الدين الروميّ" و عقل ابن طفيل في رائعته "حيّ بن يقضان" ورسائل "إخوان الصفا" و"عشق ابن عربيّ".. من هذه الدخيرة النفيسة صنعت الرواية الحديثة مجدها وتميّزها، وقد تفاوتت درجة التميّز بحسب مهارة كلّ روائي على تمثّل مخزونه الثقافي؛ وإذا أردنا أن نسوق لهذا التميّز مثالا فلن نجد له أفضل من أدباء أمريكا اللاتينية ، الذين التفتوا إليه وشكّلوا من وحيه أعمالا كبيرة ملأت الدنيا وشغلت النّاس، فضاهت في قيمتها الأدبية والفنية "la terre chinoise"

الأر الصينية لـ "Pearl Buck" بيرل بيك و " a la recherche du temps perdu" البحث عن الزمن الضائع لـ "marcel bruste" مارسال بروست و "le manteau de gogol "معطف جوجول" لـ الروسيّ" Nicolay gogol" نيكولاي جوجول و" faoste" فاوست للألماني "Goethe" جوته. وفي هذا الصدد لا بدّ من الإشارة إلى مقولة قالها الشاعر والقاصّ الأرجنتيني "خورخي لويس بورخيس في كلّ حقبة ثمّة نوع أدبي يفوق الأنواع الأخرى ، والآن يبدو أن الرواية هي هذا النوع" فقد غدت الشرفة التي يطلّ علينا من خلالها الأدباء والمبدعون بأفكارهم وتصوراتهم وشعريّتهم نظرا للمساحة الواسعة التي تمنحها لهم فضآتها اللامتناهية، ونظرا لإقبال القرّاء عليها دون بقية الأجناس الأدبية الأخرى.

لقد أعاد أدباء أمريكا اللاتيني للخطاب الروائي بعض ملامحه الواقعية الأصلية، فضحوا من خلالها الدكتاتوريات المتعاقبة المتعسفة، والحكم العسكري الذي انجرى عنه تقسيم المجتمع اللاتيني إلى طبقتين، طبقة حاكمة مستبدّة وطبقة العبيد الكادحة ، فحاربوا

الظلم ودعوا إلى حق التعليم والمثاقفة في ثوب جديد حتّم عليهم تجديد تقنيات الرواية وخلق آليات جديدة تمكّنهم من هندسة النّص الروائي، ذلك أنّ اهتمامهم كان بالدرجة الأولى يتعلّق ببنية النّص وفيما بعد مضامينه وتأتي في الرجة الثانية.

يحرص "باولو كولهو"، شأنه شان أدباء أمريكا اللاتينية على أن يقدّم دائما الجديد، وإن اعتبره النقاد يستنسخ نفسه في كلّ عمل أدبي ينجزه، من خلال تقديم الصورة النمطية عن حياته الشخصية؛ والحقيقة أنّ ما وقع فيه الكاتب لا يعدو أن يكون نتيجة حتمية للظروف القاسية التي مرّ بها، بدءا من طفولته حيث قضاها في مصحة نفسيّة بداعي أنّه تمرد على تعاليم الأسرة، وهذا ما جاء على لسان " سنتياغو" في روايته "الخيميائي" الذي أراد له أبواه أن يصبح راهبا فوضعوه في دير تحت سلطة قسيسين ورهبان، لكنّه فضّل أن يصبح راعي غنم حتى يتسنى له السفر عبر أرجاء المعمورة ، وهو ما كان له فعلا [1] أمّا عن مرحلة الشباب فلم تصف له هي أيضا، فقد انضم إلى جماعة الهيبيين hippi[2] عساه يروّض فيها قلقه ، وتمنحه الراحة النفسية الذي ظلّ يبحث عنها ، فمارس السحر وتعاطى المخدرات وجال العالم باحثا عن أسرار الشرق وديانّاته ، ولحد اليوم ما زال هذا الروائي يجوب العالم حبّا في السفر ورغبة منه في تنويع أفكاره وتجديد منابع إبداعه.

" عندما ترغب في شيء فإن الكون بأسره يطاوعك للقيام بتحقيق رغبتك" [3] كلمة قالها الملك صدقي عندما أشار على سنتياغو أن ينطلق من أجل البحث عن الكنز المختبئ تحت أهرامات مصر والذي ظلّ يزوره في منامه ويلحّ عليه إلحاحا حتى تمكّن منه في آخر الرواية؛ من هذه الفكرة انطلق "باولو كولهو" ليؤسس لمشروع ضخم شعاره" الإرادة وعدم الاستسلام للفشل تصنع المعجزات"، إذن هي دعوة إلى نبذ اليأس والتجمل بالأمل ، من أجل تحقيق ما يحلم به كلّ إنسان فوق هذه الأرض؛ وطبعا لن يتأتى له ذلك إلا بالإرادة والعزيمة ولنا في هذا الروائي القدوة والمثل، فرغم العقبات التي اعترضت طريقه ، ورغم النائبات التي ألمت به لم يستسلم أبدا، إنّما زادته قوة وجلَدا ، وصبرا ومثابرة على مواصلة السير من أجل بلوغ الهدف، وتحقيق أسطورته الشخصية في أن يصبح يوما ما روائيا مشهورا؛ وقد تحقق له ذلك فعلا بعد سنّ الأربعين حيث دخل عالم الشهرة من بابه الواسع بفضل كتابه " l Archimiste"ا الذي ترجم إلى ما يربو عن خمسين لغة ونيّف.

إنّ ما يرصده " باولو كولهو" في كتاباته ليس بعيدا عن واقعنا، بل هو جزء مخبوء داخل كلّ واحد فينا. فعند قراءة "الخيميائي" او "حاج كومبوستيلا" أو" فرونيك تقرر ان تموت" أو " على نهر بيدرا هناك جلست وبكيت" أو"القمّة الخامسة" تتمثّل حكمة لقمان ووصاياه لابنه، أو قصّة سيّنا موسى عليه السلام مع الخضر في رحلة تعلمه أو محنة النبيّ إلياس عليه السلام مع قومه وكيف صبر عليهم، إذ لا يكفّ الروائي من دعم القارئ، – وبطريقة غير مباشرة حتى لا ينفّره– بحكم وآراء يمكن أن تفيده في حياته اليومية، بل هناك منها من أثّر فعلا على حياة القرّاء [4] دون تكلّف أو تعقيد، ومن جملة هذه الوصايا التحليّ بالصبر والابتعاد عن القلق وأخذ الحيطة من أجل تحقيق الهدف – إنّما تؤخذ الدنيا غلابا– وتثقيف العقل وتمكينه من لغة الإشارات التي ستساعده حتما على قراءة الكون وبالتالي الوقوف على دلائل إعجاز وقدرة الله فضلا على الثقة في الغد والفأل الحسن، فالعسر يصاحبه اليسر، والشدّة يأتي بعدها الفرج.

إن المتمعن في كتابات هذا الروائي يلاحظ أنّه على دراية واسعة بالدين الإسلامي، فلا غرابة إذاً أن يقتبس منه مبادئه وتعاليمه السمحة؛ فالإسلام ينبذ التواكل والتسويف ويدعو إلى السعي الحثيث من أجل تفعيل وجودنا في هذه الحياة الدنيا، ولا بأس أن أشير هنا إلى ما يدعم ذلك، وهو ما جاء في "مكتوب"" Maktoub" " أن المعلم يستغل كل لحظة ليتحدث مع تلميذه عن الإيمان ليقول له توكّل دائما على الله، وأن الله لا يتخلى عن أبنائه، وفي الليل طلب المعلم من تلميذه أن يربط الخيل في صخرة

قريبة من الخيمة، ذهب التلميذ لينفّد أوامره ولكنّه لم ينس ما قاله المعلم وقال لنفسه لعلّه يريد أن يختبر قوة إيماني ولذلك سأترك الخيل في رعاية الله. وتركها دون أن يربطها؛ وفي الصباح اكتشف أن الخيل قد اختفت فعاد إلى معلّمه ثائرا.. "إنّك لا تعرف شيئا عن الله لقد تركت الخيل في رعايته كما ذكرت وهاهي قد اختفت" قال المعلّم:" إنّ الله كان يريد أن يحرس الخيل ولكنّه لكي يفعل ذلك كان في حاجة إلى يديك لكي يربطها" [5] ولعنا نتلمّس التقاطع الموجود بين مضمون هذا النّص وما جاء في نصّ الحديث الشريف في ما معناه أن الرسول صلى الله عليه وسلّم رأى أعرابياً أهمل ناقته ولم يعقلها ، وقال: توكلت على الله ، فقال له (صلى الله عليه وآله وسلّم) :(أعقلها وتوكّل)[6]، والإسلام يدعو إلى الإيمان بالقدر خيره وشره "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا" وقد أدرك باولو كولهو أن" هذه الكلمة الواسعة الدلالة لا يمكن أن تؤدي ما ترمي إليه حقيقة إلا إذا استرفدها من لغة القرآن، وقد تسنّى له ذلك فعلا بعد أن قلّب هذا المعنى في لغات عديدة عجزت عن استيفائها دلالتها العميقة، فشقّ اسم المفعول من الفعل كتب، وعنون به كتابه "مكتوب" وهذا ماجاء على لسانه حينما سئل عن سرّ اختيار هذا العنوان الغريب عن الثقافة الغربية " سمعتها من كاتب برازيلي متأثر أيضا بالثقافة العربية لدرجة أنه غير اسمه إلى اسم عربي وعلمت أن هذه الكلمة لا نظير لها في كل لغات العالم. فهي تشير إلى ما هو مقدر ومحتوم وسيقع دون أن نستطيع أن نمنع ذلك" [7] وقد اقتبس فيه بعض معاني الأحاديث الشريفة كاتقاء الحسد وإتباع الفطرة باستفتاء القلب وعدم الاغترار بالنفس والاستعانة بالله والدعوة إلى الحبّ ونبذ الأحقاد [8] فكان الكتاب في مجمله تناصا مع التراث الإسلامي لفظا ومعنى .

ويتضح التأثر بالقصص القرآني عند باولو كولهو من خلال توظيفه لقصة يوسف عليه السلام في روايته "الخيميائيّ" أو قصة النبيّ إلياس وما لاقى من ويلات من عبدة"بعل" أثناء تأدية رسالته السماوية لأمر يدعو إلى التأمل في نصوص هذا الروائي خاصة وأنّه صرّح ذات لقاء صحفي أنّه متأثر جدا بالقرآن الكريم" أنا أقرأ القرآن، وأحتفظ به بجانبي دائما في غرفة نومي بجوار فراشي، وقد اشتريت نسخة لترجمة معاني القرآن من المغرب باللغة الفرنسية، وقد قرأته مرة كاملا، والآن أقرؤه جزءا جزءا بتمعن أكثر، وأنا أحترم القرآن كثيرا جدا لأن فيه معاني وقيما رائعة، وأنا أنقل هذا الاحترام للآخرين" [9] فضلا على ذلك فإنّه يقرّ بأثر الثقافة العربية حتى أنّها منحته رؤية جديدة للعالم[10]

وإذا أردنا أن ننظر إلى موضوع آخر شغل اهتمام الكاتب فهو استعماله لبعض الأسماء العربية ذات البعد الديني المحض كاسم "فاطمة" التي تعلّق بها سنتياغو أثناء دخوله الفيوم في رحلة بحثه عن الكنز، واسم صادق وهو الذي أشار على هذا الأخير أيضا بالمضي قدما من أجل تحقيق أسطورته الشخصية، فكان له نعم العون ونعم المرشد، واسم الحسن وهو من دلّ باولو كولهو على أسرار الصحراء وعلّمه كيف يتواصل مع العالم العلوي من خلال لغة الإشارات، وذلك حينما سمعه يرتّل كلام الله فاستشعر حلاوة هذه القراءة رغم جهله باللغة العربيّة؛ ودون أن يخفى علينا أيضا بأنّها أسماء لها وقعها الخاص في "ألف ليلة وليلة"، وهذا التوجه لدى الكاتب توجه واع ومقصود حتى يشرك كل القرّاء مهما كانت ثقافتهم وديانتهم في امتصاص الفوارق دون اكتراث أو امتعاض ،فلا بأس أن تلتقي في أعماله أيستير Ister مع فاطمة، أو الحسن مع ميكائيل Mikael [11]، ما دامت الرسالة واحدة، وهي إعمار الأرض والعيش في حبّ وسلام.لقد أعطى باولو كولهو بحق المشهد الروائي قيمة فنيّة خاصة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي بعد أن منحها رؤيته الخاصّة.

إنّ لهذا المنحى الجديد علاقة فارقة في مسيرة هذا الروائي، فقد رأى أن العالم اليوم أصبح غارقا في المادية الزائلة، لذلك هو يعي بالفعل أن هذا الأمر لا يصلح إلا بتطهير هذه النفس البشرية، من درن العبودية، فعمد إلى التراث العربيّ الإسلامي، واستلهم من

نصوصه النيّرة ومن روحانيته المقدّسة ما يخفف به من وطأة هذه المادية التي هيمنت على مساحة واسعة من حياة الإنسان حتى جرّدته من إنسانيته. لقد رمى باولو كولهو – حسب رأيي – من خلال هذا التوظيف أولا إلى إضفاء نوع من الهيبة والقداسة على أعماله، ولعله السبب المباشر الذي جعل نسبة إقبال القرّاء عليها مرتفعة، وأخيرا نقل التراث العربي الإسلامي إلى العالم بأسره في صورة صافية نقيّة مغايرة تماما للصورة التي تحاول بعض الأبواق المعرضة ترويجه ، وهذا ما آلاه على نفسه" أعتقد أن كل إنسان له الحق في الاختيار، وهذا موجود في كل كتاباتي وهذا هو احترام الذات سواء كانت مختلفة معي شخصيا أو دينيا ، إن رواية الخيميائي مثلا تتكلم بطريقة محترمة عن الذات وتعطي للناس نظرة صحيحة عن الإسلام والثقافة العربية رغم أنه يوجد كثير من المغالطات المسيئة ضد الإسلام . ومع ذلك فأنا كاثوليكي ودون أن أكون مسلما ، عندما أتكلم عن الإسلام أفعل ذلك بصورة موضوعية وعادلة .. إن هدفي في الحياة وفي العمل هو تنمية وتطوير هذا الفهم الذي يتيح احترام الذات واحترام الآخر في آن واحد، والفن هو الذي يستطيع أن يخفف هذا التواصل والتفاهم"[12]

الهوامش:

1. **L'Alchimiste, Paolo Coelho, traduit par jean oréochioni, .p-p 26,27 casbah édition.2001**
2. هي حركة سلمية تحرريّة، ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في الستينيات من القرن الماضي، ثارت على قيم المجتمع ودعت إلى إعادة النظر في السلم الاجتماعي. انظر: **dictionnaire Hachette encyclopédique p 767**
3. **L Alchimiste P 47**
4. **Usage et culture du livre de sagesse l'Alchimiste de Paolo Coelho. Enquête sur les pratiques de lecture des étudiants de l'université de METZ. Nicolas Brucker.p-p 11,13.décembre 2003**
5. مكتوب، باولو كولهو، ترجمة: طلعت الشايب ، ص 32 ط 1، بيريت للنشر2002
6. شبكة السنة النبوية وعلومها، فالح بن محمد بن فالح الصغير **http :IIalssunnah.com**
7. ملتقى حضر موت للحوار العربي، شبكة حضر موت العربية، حوار هشام يونس .**www.hdrmut.netIvb**
8. مكتوب ص-ص-ص45،46،54
9. ملتقى حضر موت للحوار العربي، شبكة حضر موت العربية، حوار هشام يونس
10. انظر اللقاء الصحفي لـ نجوى بركات . صحيفة معابر الالكترونية، آذار 2010**maaber@scs-net.org**
11. إيستيروميكائيل بطلا روايتة **le zahir** " الزهير"
12. ملتقى حضر موت للحوار العربي، شبكة حضر موت العربية، حوار هشام يونس